الإمبراطور الفيلسوف

٢

كثير من المؤرخين الذين يكرهون النزعة الفلسفية ويؤثرون ما يسمونه السياسة العملية يرون فرضاً عليهم أن يثبتوا أن الحاكم الفيلسوف من طراز مرقس أورليوس لابد أن يكون سيئ الإدارة . واهى الرأى ، غير قادر على النهوض بأعباء الملك ، وإحتمال تبعاته ؛ وحقيقة أن هناك ما يثبت أن فرط تسامح مرقس أورليوس قد جنى على سياسته ، وأساء إلى سمعته . ولكن عهده برغم ذلك كان حافلاً بالإصلاح والأخذ بأسباب التقدم والنهوض ، ولقد كانت له ثروة ضخمة ، ولكنها كانت تنفق جميعها فى سبيل المصلحة العامة ، وكان يحترم السناتو ويرعى جانبه ، وكان فى كل عام يشن حرباً لحماية الثغور والمحافظة على سلامة الدولة مع فرط كراهيته للحرب ، وشدة حبه للسلام ، وقد حارب الكوادى والماركومانى حرباً مظفرة لا لين فيها ولا هوادة .

وكان ديمقراطى النزعة يمقت الأرستقراطية الرومانية القديمة ، ولا يرى قيمة لغير الإمتياز الشخصى ، ولم يجد فى أشراف الرومان من يؤيد أفكاره فى الحكومة الصالحة ولذا آثر أن يستعين برجال لم يرشحهم للحكم سوى كفايتهم وإستقامة أخلاقهم ، وقد أخذت الحكومة الرومانية فى القرن الثانى الميلادى لأول مرة فى التاريخ بتلك النظرية السليمة التى تقول إن الحكومة عليها واجبات أبوية نحو الشعب .

وكان أهم ما يشغل بال السياسيين مشكلة تعليم أولاد الفقراء والصعاليك

والعبيد ، وكان النظام الإقتصادى السائد لا يجعل علاج هذه المسألة من الشؤون الهينة ، وقد عالجها تراجان بفرض مبالغ من المال على الأشياء المرتهنة ، وعهد إلى وكلاء من قبله فى جمع ريع تلك الأموال ، فلما جاء مرقس أورليوس جعل هؤلاء الوكلاء من موظفى الدولة الملحوظين ، وكان يختارهم بعناية بالغة وتدقيق شديد ، وناط بجماعة من الفقهاء المتمكنين مهمة تهذيب القوانين القديمة وتنقيحها وتعديلها وإشاعة الروح الإنسانية فيها ، وتلطيف قسوتها وشدتها ، وجعلها ملائمة لحالة قوم متحضرين .

وأخذ الإمبراطور على عاتقه حماية الضعفاء والعاجزين ، ولم يكن لهم قبل ذلك نصير ، فأصبح الطفل اليتيم أو المريض يظفر بالعناية ويحظى بالرعاية ، وقام الإمبراطور بوضع خطط وأساليب تبث روح الرحمة والعطف والإنسانية فى مختلف أعمال الدولة وإدارتها ومصالحها .

وموجز القول إن هذا الرجل النبيل والحاكم القدير كان لا يرى الإنسان العادى آلة من الآلات أو وسيلة من الوسائل كما هو شأن بعض أدعياء السياسة وفريق الحكام الغلاظ الأكباد القساة القلوب : وإنما كان يعتبر الإنسان كائناً أخلاقيًّا له حقوق كما أن عليه واجبات .

وقد حاول أن يبطل تلك المظاهر الفظيعة التى كانت تجعل المسارح الرومانية مؤذية للمشاعر السليمة ، ولكنه لم يوفق فى ذلك ، فقد كانت هذه المشاهد الكريهة جزءاً من حياة الأمة الرومانية ووسيلة من وسائل الترفيه عن الشعب ، ولما سلح المصارعين وأرسلهم إلى ميادين الحرب التى قام بها لدفع غارات القبائل الألمانية كادت تحدث ثورة حاطمة ، وأخذت الأوشاب والدهماء تقول «يريد أن يسلبنا تسليتنا ليرغمنا على أن نكون فلاسفة مثله» واضطر مرقس أورليوس أن ينزل على حكم الرأى العام ، وقد حاول تلطيف الشر الذى

لم يستطع دفعه ، فأمر بوضع فراش تحت الراقصين على الحبل ، وأن تكون الأسلحة التى تستعمل فى المصارعات غير حادة ولا مسنونة ، وكان يتحاشى جهده حضور هذه الحفلات .

واتخذ الإمبراطور من أساتذته وزراء وسياسيين ، ورفع مكانتهم ، وكان لأستاذه جونياس راستيكاس منزلة سامية فى نفسه ، على أن هذا العطف الذى أسبغه الإمبراطور الفيلسوف على جماعة المفكرين وبينهم الصالح والطالح كان لابد أن يتمخض عن بعض العيوب ، وقد استدعى الفلاسفة المشهورين من كل ناحية من نواحى الإمبراطورية المترامية الأرجاء ، وكان من بين هؤلاء جماعة من الدجالين والمتخلفين العاجزين ، وكان شعرهم الأشعث ولحاهم المرسلة وأظفارهم الطويلة تجعل منهم موضوعاً صالحاً للفكاهة والتندر ، وكان الإمبراطور يجود عليهم بالمال ، وتظللهم رعايته ، حتى صار يقال إنهم عبء على كاهل الدولة ، واضطر الإمبراطور إلى أن يبرر موقفه ويدافع عن سياسته .

ولم يحاول مرقس أورليوس إخفاء عيوب أصدقائه ، ولكن حكمته كانت تقيم حداً فاصلاً بين النظرية الفلسفية فى ذاتها وضعف الذين يقولون بها ، وكان يعلم أن الفلاسفة الذين يأخذون أنفسهم بما يقولون للناس قليلو العدد أو أنهم غير موجودين على الإطلاق ، ولكنه كان أرجح عقلاً وأعمق حكمة من أن ينتظر الكمال فى الناس ، وعيوب الفلاسفة لم تبغض إليه الفلسفة .

وكان من الطبيعى أن يكبر على ممثلى الروح الرومانية القديمة أن يروا مناصب الدولة الكبيرة نهباً مقسماً بين هؤلاء الناس الذين ليس لهم حسب ولا نسب ، وقد قدموا من الشرق الذى ينظر الرومانيون إلى أهله نظرة تنطوى على الزراية والإحتقار ، وهذا هو الموقف الذى شاء سوء الحظ لآفيدياس كاسياس أن يقفه من مرقس أورليوس ، وهو بطل مجاهد وسياسى ممتاز على جانب من الإستنارة

والثقافة ، وكان يعطف على الإمبراطور ، ويضمر له الحب ، ولكنه كان مقتنعاً الإقتناع كله بأن فن الحكم يستلزم شيئاً آخر غير الموهبة الفلسفية ، ويروى أنه نبز الإمبراطور بأنه «امرأة عجوز تتفلسف» وآل به الأمر فى النهاية إلى إعلان الثورة والخروج عليه ، وكانت التهمة التى قذف بها الإمبراطور هى إسناد مناصب الدولة إلى قوم ليس لهم ضمان من المال والثروة والجاه أو سابقة من الفضل ، وبعضهم لم يحصل علماً ولم يتلق درساً .

وكان الإمبراطور ينظر إلى أصدقائه الفلاسفة نظرة إحترام وتقدير ، ويعدهم إخوانه فى الحكم وسياسة الدولة ، وكان هذا المظهر الغريب ملائماً لأخلاقه ومتمشياً مع طبيعة الإمبراطورية ، وتصور الرومان للدولة ، فقد كان تصورهم للدولة تصوراً عقلياً خالصاً ، وكان القانون هو المعبر عن العقل ، فمن الطبيعى إذاً أن يجئ اليوم الذى تلقى فيه مقاليد الأمور إلى أيدى أصحاب العقول . وقد كانت الفلسفة حينذاك تقوم مقام الدين ، وكان لها دعاتها الذين يبشرون بها ويعملون على إذاعتها وتغليبها . وكان من العادات المتبعة أن يدعو الناس فى ساعة الوفاة أحد الحكماء ليهون عليهم إحتمال الموت ويشجعهم فى الساعة الأخيرة من حياتهم .

وكان أول واجبات الفيلسوف هو أن ينير بصيرة الناس ، وأن يسندهم ويأخذ بيدهم ، ويهديهم سواء السبيل . وحينما كان يصيبهم حزن شديد كانوا يدعون الفيلسوف ليسرى عن نفوسهم ويعزيهم ويواسيهم ، وكان الحكيم هو الصديق الحميم للأمير الذى يستشيره فى دخائله ، ويفضى إليه بأسراره ، ويتقبل نصيحته ومشورته .

وقد مهد ذلك لحدوث ما قال عنه رينان إنه يشبه المعجزة ، وهو ما يمكن أن يسمى «بحكم الفلاسفة» ، وقد عنى هذا الحكم بتوفير أسباب التقدم

الإجتماعى والأخلاقى ، وهذب القوانين ، وصقل العادات والآداب ، واقام الدولة على قواعد الحكمة والبر والصلاح ، ولكن من ناحية أخرى إعترى الضعف القوة الحربية وهبط مستوى الأدب ، فقد كان الفلاسفة ينظرون فى شىء من التعالى والإشفاق إلى خيلاء الأدباء والكتاب وصلفهم وإسرافهم على أنفسهم ، وفرط حبهم للشهرة والمديح ، وكان الأدباء فى دورهم يسخرون من أسلوب الفلاسفة الحوشى النافر المتعاظل ، وتجافيهم عن رقة الآداب وحسن السلوك ، ولحاهم الغزيرة وملابسهم الخشنة الثقيلة .

وتردد مرقس أورليوس حيناً من الزمن بين الفلاسفة والأدباء ، ثم قطع بالرأى واختار جانب الفلاسفة ، وأمدهم بتأييده ، وناصرهم ما وسعه الجهد ، وأهمل فى سبيل ذلك اللغة اللاتينية ، وآثر اليونانية وخصها بعنايته لانها لغة الفلسفة ولغة المؤلفين والمفكرين الذين كان يحبهم ويولع بقراءتهم ، وكان لذلك أثره البعيد فى تقهقر الأدب اللاتينى وعودة الأزدهار إلى الفكر اليونانى ، ولم يتقدم الفن كذلك فى عهده لأن اتجاه العصر لم يكن يحفل بالجمال والقالب ، وإنما كان فى طليعة ما يشغل الساسة والمفكرين النهوض بالضعفاء وتيسير أسباب الحياة لهم ، وترقيق قلوب الأقوياء ، وكبح شرهم ، وتقليم أظفارهم .

وكانت الفلسفة الشائعة فلسفة أخلاقية خالصة تنقصها الروح العلمية ، ولذا سمت بالقلوب ولم ترتفع بالعقل ، فكثرت الخرافات ، وذاع الإعتقاد بالسحر والرؤى والأحلام ، وتفشت الأوهام والخزعبلات ، وتبع ذلك ضروب شتى من الجهالات والحماقات ، وكثر الدجالون والمخرقون وأدعياء السحر والشعوذة . ولم يقترن التقدم الاجتماعى بالتقدم الفكرى ، ولم يكن للإمبراطور الفيلسوف حيلة فى ذلك ، فالعمل الذى كان يستطيع القيام به قد قام به على خير وجه ، وكان الهدف الذى يرمى إليه هو الإصلاح الاجتماعى ،

ولكنه كان يستلزم زمناً طويلاً وجهداً متوالياً .

على أن هذا الإمبراطور الفيلسوف الصالح قد وقع فى خطأ خطير عرضه للكثير من اللوم ، وذلك الخطأ هو إحجامه عن حرمان نجله كومودس من وراثة العرش بعد أن بدأت تظهر نوازعه الشريرة وبوادر عدم صلاحيته لتولى أمور الدولة والجلوس على العرش ، وقد وجه إلى سياسة الإمبراطور النقد الكثير من جراء ذلك ، وقيل عنه إن حبه لابنه غطى على فكره ، وأضل رأيه ، وجعله لا يبصر مصلحة الدولة والملايين من أفراد الشعب . وقد التمس له رينان شيئاً من العذر فكتب فى هذا الصدد يقول[1] « هذه المسألة من الأشياء التى يسهل أن نراها من بعيد حيث لا تكون العقبات بارزة حاضرة ، ويفكر الإنسان فى الأمور بمعزل عن الحقائق وخارج نطاق الوقائع ، وينسى قبل كل شىء أن الأباطرة الذين ساروا على سنة التبنى منذ عهد الإمبراطور نرفا لم يكن لهم أولاد وقد كان التبنى مع حرمان الابن أو الحفيد متبعاً فى القرن الأول الميلادى ، ولكنه لم يسفر عن نتائج محمودة ، وكان مرقس أورليوس على ما يظهر يفضل الوراثة المباشرة لأنه كان يرى أن ذلك يحول دون المنافسة ، فحالما ولد كومودس فى سنة ١٦١ أظهره لفيالق الجيش بالرغم من أنه كان له ابن آخر ولد معه ، وفى سنة ١٦٦ طلب لوشياس فيراس أن يصبح ابناً مرقس أورليوس – كومودس وآنياس فيراش – وريثين للعرش ، وكان أساتذة كومودس قد لحظوا فيه العلامات والظواهر والدلالات التى تنم على الطبيعة الشريرة والخلق الفاسد ، ولكن كيف يصدرون أحكاماً سابقة على غلام فى الثانية عشرة من عمره ؟ على أن كومودس كان يحاول أن يكبح جماح نفسه ، ولما ظهرت بوادر سوء خلقه فى النهاية واستبان الإمبراطور أن الذى سيخلفه على العرش كان هولة وأن الأرجح

(١) راجع كتاب رينان عن مرقس أورليوس من صفحة ٢٣٤ إلى صفحة ٢٣٨ .

أنه سيسير على خلاف منهجه ، وينحرف عن الطريق السوى ، خطر له بغير شك خاطر حرمانه من وراثة العرش ، ولكن ذلك جاء متأخراً : وفضلاً عن ذلك فإن كومودس كان فى السابعة عشرة من عمره ، فمن يستطيع أن يجزم بأن أخلاقه لن تتحسن وتتهذب ؟ ولقد استمر هذا الأمل حتى بعد وفاة أبيه ، وقد أظهر كومودس فى بادئ الأمر أنه سيتبع نصائح الرجال الذين إختارهم والده ليكونوا إلى جانبه» .

وهذا هو رأى رينان فى هذه المسألة وهو كل ما يستطاع أن يقال دفاعاً عن مرقس أورليوس ، وهكذا شاء سوء الحظ أن يكون نجله وخليفته على العرش نقيضه فى كل شىء ، كان الإمبراطور مرقس أورليوس مثلاً أعلى فى الحكمة والفضيلة ، وكانت حكمته أكبر من عصره . وكان موقفه سليماً من الناحية الأخلاقية . ولكن الظروف القاسية عملت على معاكسته ، وإذا عيى الطبيب النطس عن علاج المريض فليتقدم إذاً الأدعياء والدجالون لمباشرة العلاج وضمان الشفاء ، وإذا أخفقت الحكمة والفلسفة والفضيلة فى إصلاح العالم فليتول ذلك الجهل والسفه والحماقة والحفة والنزق ؛ وحيث لم يوفق الفيلسوف القديس والحكيم الصالح مرقس أورليوس فليحمل عنه العبء نجله كومودس الفاسد الشرير السادر فى الغواية ، المنغمس فى البهيمية ، وهكذا شاءت الأقدار أن تفتن فى المطابقة فيجئ كومودس شر الناس بعد مرقس أورليوس خير الناس ، وأعفهم وأرجحهم ، وأسماهم حكمة ، وأصدقهم مثالية .